

الهجرة بين القرآن والسنة

جاء في «معجم مقاييس اللغة» أن مادة «هجر» لها أصلان ، أحدهما يدل على قطع أو قطيعة ، والآخري يدل على شد شيء أو ربطه ، وهاجر القوم من دار إلى دار: تركوا الأولى للثانية ، وإذا كانت الهجرة في الأصل مشتقة من الهجر ، وهو ضد الوصل ، فإن الكلمة قد غلبت على الخروج من أرض إلى أرض . والمهاجر يفتح الحيم هو موضع الحجر ، والتهجير : التكبير إلى الشيء ، وفي الحديث : « لو يعلم الناس ما في التهجير لاستبقوا إليه » . والهجر - بضم فسكون - هو الفحش في الكلام .

هذا بعض حديث اللغة عن مادة «الهجرة» . فما حديث القرآن الكريم عنها ؟

لقد وردت هذه المادة في التتريل المجيد في ثلاثين موضعاً ، وقد وردت بمعنى الترك والبعد والقطع في قوله تعالى في سورة المدثر : « والرُّجْزَ فَاهْجُرْ » (الآية ٥) .

وفي سورة مريم : « لئن لم تنته لأرجمنك وأهجرني ملياً » (الآية ٤٦) .
وفي سورة المرملة : « واضر على ما ينولون وأهجرهم هجرأ حبيلاً » (الآية ١٠) .

وفي سورة النساء : « وَاللَّائِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ »
(الآية ٣٤) . وفي سورة الفرقان : « وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا
الْقُرْآنَ مَهْجُورًا » (الآية ٣٠)

وجاءت المادة في موضع واحد بمعنى الهذيان والقول الفاحش ، فذلك
في سورة المؤمنون : « مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ » (الآية ٦٧) أى تهذون
بالظن في الآيات .

ولكن الأغلب في استعمال القرآن الكريم لمادة الهجرة هو أن يراد
بها معنى الارتحال والانتقال من مكان إلى مكان ، أو من بلد إلى بلد ،
فرداً من ضلال أو أذى ، وطلباً لموطن سكونية وطمأنينة ، وهذه الهجرة هي
التي نوه بها القرآن ودعا إليها ، وزكّى سيرتها ، ومدح أهلها ، وذم المتفاعسين
عنها بعد لزومها وجوبها ، ففي سورة النساء نجد هذه الآيات :

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا
كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ . قَالُوا : أَلَمْ نَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا
فِيهَا ؟ فَأُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ سَاعَتٌ مَّصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ ، لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ
أَنْ يَغْفُرَ لَهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي
الْأَرْضِ مُرَافِعًا كَثِيرًا وَسَعَةً ، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » (الآيات
٩٧ - ١٠٠) .

وهذه الآيات تجلونا عدة أمور ، منها :

١ - الإسلام يطالب بالهجرة عند التعرض للذل ، أو تعرض العقيدة

للضياح .

٢ - من يقدر على الهجرة عند وجوبها ولا يهاجر يعرض نفسه للعذاب الإلهي الأليم .

٣ - العاجزون عن الهجرة لضعف أو قلة حيلة أو مانع قهري ، يعفو الله عنهم ولا يؤاخذهم .

٤ - أرض الله تعالى رحيمة فسيحة ، فيها منسج لمن ضاق به جانب من جوانبها أو طمى عليه .

٥ - الهجرة لله كالجهاد في سبيله ، فمن مات وهو على طريقها ضمن له ربه أجر المجاهدين .

ومادام للهجرة في سبيل الله تعالى هذه المكاة فلا عراة أن يعطر القرآن الحكيم حديثها ، وأن يكرر ذكراها ، وأن يمجده أهلها . فنجد في سورة البقرة : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (الآية ٢١٨) . وفي سورة آل عمران : « فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا . لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ » . (الآية ١٩٥) . وفي سورة التوبة : « الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » (الآيات ٢٠ - ٢٢) . وفي سورة النحل : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لِنُبُوَّتِهِمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » (الآيتان ٤١ ، ٤٢) . وفي السورة نفسها : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ

رحيم» (الآية ١١٠). وفي سورة الحج : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَاتَلُوا أَوْ مَاتُوا لِيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ » (الآيتان ٥٨ و ٥٩) .

• • •

وقد فهمنا من آية النساء التي سقت ، وهي قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَلَمُوا أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسَعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا فَأَوْلَيْتُكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » أن المتع عن الهجرة المطلوبة مع القدرة عليها يكون آثماً ، لأن الهجرة حينئذ تكون واجبة مفروضة ، وقد قال الإمام مالك بوجوبها .

وحينما تعرض جاز الله الرمخشري لتفسير الآية قال فيما قال : « وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب ، لبعض الأسباب والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر - أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة ، حقت عليه المهاجرة ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : (من فر بدينه من أرض إلى أرض - وإن كان شبراً من الأرض - استوجب له الجنة ، وكان رفيق أبيه إبراهيم ، ونبيه محمد) عليهما الصلاة والسلام^(١) . اللهم إن كنت تعلم أن هجرتي إليك لم تكن إلا للفرار بديني ، فاجعلها سبباً في خاتمة الخير ، ودرك المرجو من فضلك ، والمبتغى من رحمتك ، وصل جوارى لك بعكوفى عند بيتك ، بجوارك في دار الكرامة ، يا واسع المغفرة » .

وإذا كانت الهجرة تقع فراراً من شيء أو طلباً لشيء ، فإن نكلاً منهما

(١) استشهد الرمخشري بهذا الحديث ، وقد علق عليه ابن حجر العسقلاني بقوله : « أمره

الثعلبي في تفسير العكوف ، من رواية عباد بن منصور التاجي عن الحسن مرسلًا » .

أقسام ، فهجرة الفرار من شيء - كما ذكر ابن العربي - ستة أقسام ،
الأول : الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وقد كانت فرضاً في عهد
الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهذه الهجرة مفروضة باقية إلى يوم القيامة ،
والتي انقطعت بفتح مكة هي القصد إلى النبي حينما كان .

الثاني : الخروج من أرض البدعة ، كأن يكون فيها من يسون
السلف أو يأتون المنكر ، لقول الله تعالى في سورة الأنعام : « وَإِذَا رَأَيْتَ
الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ،
وَإِمَّا يُنسِنِكَ الشَّيْطَانُ فَلَاحِقٌ بِهَذَا الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »
(الآية ٦٨) .

الثالث : الخروج من أرض يغلب عليها الحرام ، لأن طلب الحلال
فريضة على كل مسلم .

الرابع : الفرار من الأذية في البدن ، وهذه رخصة من فضل الله تعالى ،
وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام . فإنه لما خاف من قومه قال :
« إِنِّي مَهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي » وقال : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَاهِدِينَ » . وقال القرآن
عن موسى : « فخرج منها خائفاً يترقب » .

الخامس : الخروج لحوف المرض في البلاد الوخمة ، والانتقال
إلى الأرض الطيبة .

السادس : الفرار خوف الأذية في المال ، فإن حرمة مال المسلم كحرمة
دمه ، والأهل مثله وأوكد .

والخروج لطلب الشيء قسمان : طلب دين ، وطلب دنيا ، وطلب
الدين يتعدد بتعدد أنواعه ، فقد يكون سفرًا للعبرة ، لقوله تعالى : « أُولَئِكَ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » (مصر)

(الآية ٤٤) . وقد يكون سفرًا للحج وهو فرض على من استطاع إليه سبيلا . وقد يكون الخروج للجهاد وهذا له أحكامه المقررة ، فقد يكون فرض كفاية وقد يكون فرض عين ، وقد يكون السفر لطلب الضرورى من أمور المعاش وهذا مفروض عليه شرعاً ، ويجوز السفر لهذا الغرض إذا كان يريد التجارة وكسب الزائد عن القوت ، لقوله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ » (البقرة ١٩٨) . وقد يكون الخروج لطلب العلم ، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ، وقد يكون الخروج بنية العبادة فى أماكن نص عليها الشارع ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى بالمدينة ، والمسجد الأقصى » ، وقد يكون الخروج للمرابطة فى الثغور ، وقد يكون لزيارة الإخوة فى الله بنية الحب فى الله تعالى .

وأما الخروج لطلب الدنيا فأنواعه كثيرة تختلف باختلاف مقاصد العباد وتنوع البلاد .

ولقد أورد « تفسير المنار » رأى الإمام محمد عمده فى الهجرة . بعد أن ذكر خلاف الفقهاء فى وجوبها وبقائه أو عدم بقاءه ، ونص على أن المالكية يقولون بالوجوب ، ثم قال : « ولا معنى عندى للخلاف فى وجوب الهجرة من الأرض التى يُمنع فيها المؤمن من العمل بدينه ، أو يؤدى فيها إيذاء لا يقدر على احتماله ، وأما المقيم فى دار الكافرين ، ولكنه لا يمنع ولا يؤذى إذا هو عمل بدينه ، بل يمكنه أن يقيم جميع أحكامه بلا نكير ، فلا يجب عليه أن يهاجر ، وذلك كالمسلمين فى بلاد الإنكليز لهذا العهد ، بل ربما كانت الإقامة فى دار الكفر سبباً لظهور محاسن الإسلام وإقبال الناس عليه » .

• • •

وإذا كان القرآن الكريم قد تحدث عن الهجرة مصرحاً بمادتها في عدة مواطن منه ، فإنه قد تحدث عنها في مواطن أخرى بمادة « الإخراج » ، فقال في سورة البقرة : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ كِبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ » (الآيَة ٢١٧) . وقال في سورة التوبة : « أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ » (الآيَة ١٣) . وقال في سورة محمد : « وَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ » (الآيَة ١٣) . وقال في أول سورة الممتحنة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ . وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَكْرِينِ » . (الآيَة ٣٠) .

وليس المراد من إخراج المشركين للرسول والمؤمنين المهاجرين من ديارهم بغير حق ، أن المشركين تولوا طردهم وإخراجهم بالفعل ، مجتمعين أو متفرقين ، فإن كثيراً من المهاجرين قد خرج مستخفياً ، كما خرج النبي عليه الصلاة والسلام مع صاحبه أبي بكر الصديق رضی الله عنه ، وإنما المراد أنهم كانوا سبباً في هجرة هؤلاء المؤمنين بالكفران الذي كان من المشركين وعنادهم واضطهادهم للمؤمنين وإيدائهم للمستضعفين منهم .

ولا شك أن أفضل أنواع الهجرة التي تحدث عنها القرآن الكريم هي هجرة سيد الشريعة وإمام الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليه ، ولقد تجلّت في حادث الهجرة عناية الله تعالى برسوله وحفظه له . وحسبنا أن

نسمع في ذلك قول الحق جل جلاله في سورة التوبة : « إِنْ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ، إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْدِيَهُمْ يُجْنَدُونَ لَمْ تَرَوْهَا وَحَمَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (الآيَة ٤٠) .

ولو عرفنا الظرف الدقيق الحرج الذي كانت عنده الهجرة لأدركنا مبلغ عناية الله بسبيه ، ولرأينا مبلغ المكر الأثيم الذي أراده المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في تفاسيرهم ، وأبو نعيم والبيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس رضى الله عنه ، روايات منها هذه الرواية التي نقلها السيوطي في « الدر المنثور » ، عن ابن عباس قال :

إن نفرأ من قريش ، ومن أشراف كل قبيلة ، اجتمعوا ليدخلوا دار الدوة ، واعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رآوه قالوا : من أنت ؟ قال : شيخ من أهل نجد ، سمعتُ بما اجتمعتم له ، فأردت أن أحضركم ، ولن يعدمكم مني رأى ونصح . وقالوا : أجل فادخل . فدخل معهم فقال :

انظروا في شأن هذا الرجل ، فوالله ليوشكن أن يوائبكم في أمركم بأمره . فقال قائل : احبسوه في وثاق ، ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء - زهير ونابغة ، فإنما هو كأحدكم .

فقال عدو الله الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله ليخرجن رائد من محبسه لأصحابه ، فليوشكن أن يشبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ، ثم يمنعه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم .

فانظروا في غير هذا الرأي .

فقال قائل : فأخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا منه ، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع ، وأين وقع ، وإذا غاب عنكم أذاه استرحتم منه ، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع ، وكان أمره في غيركم .

فقال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذه للقلوب بما تسمع من حديثه ، والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب لتجتمعن عليه ، ثم ليسرن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم .

قالوا : صدق والله ، فانظروا رأياً غير هذا .

فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأى لا رأى غيره .

قالوا : وما هذا ؟

قال : نأخذ من كل قبيلة غلاماً وسطاً شاباً نهداً ، ثم يُعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً ، ثم يضربونه به ضربة رجل واحد ، فإذا قتلتموه تفرق دمه في القبائل كلها ، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم ، وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل (الدية) واسترحنا ، وقطعنا عنا أذاه .

فقال الشيخ النجدي : هذا والله هو الرأي ، القول ما قال الفتي لا أرى غيره .

وتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له ، فأتى جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم فأمره ألا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه ، وأخبره بمكر القوم ، فلم يبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته تلك الليلة ، وأذن الله له عند ذلك في الخروج ، وأمرهم بالهجرة ، واقترض عليهم القتال ، فأنزل الله « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ »

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » (سورة الأنفال الآية ٣٠) .

• • •

ومن الملامح التي نلاحظها في حديث القرآن الكريم عن الهجرة أنه يقرنها بالإيمان في كثير من المواطن ، وكأنه يشير بذلك إلى أن الهجرة ثمرة من ثمرات الإيمان ، لأن من آمن بالله واستجاب له ، يخرج مهاجراً في سبيل ربه . إذا رأى أن في حده الهجرة نصراً لدينه أو حماية لعقيدته ، ولذلك نجد القرآن في سورة البقرة يقول : « الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (الآية ٢١٨) .

ويقول في سورة التوبة : « الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » . (الآية ٢٠)

وفي سورة المنتحنة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ إِنَّهُنَّ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حُلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ » . (الآية ١٠) .

وأحياناً يشير القرآن الكريم إلى الإيمان المطلوب مع الهجرة ، فيذكره بغير لفظه ، كما إذا وصف الهجرة بأنها في الله ، أو في سبيل الله ، لأن ذلك يقتضى الإيمان ، ففي سورة النساء : « وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » .

وفي سورة النحل : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ » . وفي سورة الحج : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . . » . وفي سورة النور : « وَلَا يَتَلَّأُو الْقُضَلُ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُبْتِغُوا أَهْلَ الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » .

وفي سورة العنكبوت : « فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . (الآية ٢٦) .

ولأن الهجرة تستلزم الإيمان جاء في حديث عمر رضى الله عنه - كما في

النهاية - أنه قال : « هاجروا ولا تهجروا » أى أخلصوا الهجرة لله تعالى ، ولا تشبهوا بالمهاجرين على غير صحة منكم أو إيمان عندكم .

والقرآن يرينا مدى الارتباط بين الإيمان والهجرة ، حين يحدثنا فى أواخر سورة الأنفال عن أقسام المؤمنين الموجودين على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويشير إلى أهم أربعة أصناف :

الصف الأول : صف المؤمنين المهاجرين المجاهدين ، وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة قبل غزوة بدر ، وهؤلاء هم أفضل الأصناف .

الصف الثانى : هم الأنصار الذين آوا المهاجرين ونصروهم ، وهذا الصف يرتبط بالصف السابق برابطة التعاون والتناصر وتبادل الولاية فيما بينهم ، فكل منهم مناصر لأخيه ، فهم يتشاركون ويتكافلون .

الصف الثالث : صف المسلمين الذين لم يهاجروا ، بل ظلوا باختيارهم بين المشركين فى دار الحرب ، وهؤلاء لا يثبت لهم شئ من ولاية المسلمين المستقرين فى دار الإسلام ، اللهم إلا إذا كان هناك اضطهاد لهم بسبب دينهم من المشركين .

الصف الرابع : هم الذين باعوا دينهم وهجرته عن حجرة لأبلى . وهذا الصف يلحق بمن سبقه من المهاجرين والأنصار .

يقول الله تعالى فى تلك الأصناف :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالِكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا ، وَإِنْ اسْتَضَرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ نَصِيرٌ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَعْضِ أَوْلِيَاءِ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ

كَبِيرٌ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا
أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَى
بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (الأنفال الآيات ٧٢ - ٧٥) .
ويقرب من هذا ما ذكره الله تعالى في سورة الحشر ، حيث يقول

عن طوائف من المؤمنين السابقين واللاحقين :

« لِّلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَسْتَغُونَ فَضْلًا
مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا
الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَلْبِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ
حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ
شِحْنَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ
لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا
رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . (الآيات ٨ - ١٠) .

• • •

هذا بعض حديث الهجرة في القرآن الكريم .

ثم يأتي حديث الهجرة في السنة المطهرة :

لعل أول ما يشد أفكارنا وأنصارنا هو قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته
إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته لنديا يصيبها .
أو امرأة يترجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه . »

فهذا الحديث صريح في الدلالة على أن الهجرة الشرعية المحمودة

عند الله تعالى هي الهجرة المخلصة القائمة على الإيمان وصدق الامتجانا

لله وللرسول ، وكان هذا تأييد لما لحناه من قرن التزليل المجيد الهجرة بالإيمان في مواطن كثيرة .

ولقد تعرض شبه التعارض بين قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » وقوله في حديث آخر : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة » . ولكن ابن الأثير يجمع بين الحديثين بقوله « الهجرة هجرتان : إحداهما التي وعد الله عليها الجنة في قوله « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ، فكان الرجل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ، وبدع أهله وماله ، لا يرجع في شيء منه ، وينقطع بنفسه إلى مهاجره ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكره أن يموت الرجل بالأرض التي هاجر منها ، فمن ثم قال : « لكن البائس سعد بن خولة » يرى له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة ، وقال حين قدم مكة : « اللهم لا تجعل منا يانا بها » . فلما فتحت مكة صارت دار إسلام كالمدينة ، وانقطعت الهجرة .

والهجرة الثانية : من هاجر من الأعراب وغزا مع المسلمين . ولم يفعل كما فعل أصحاب الهجرة الأولى ، فهو مهاجر ، وليس بداخل في فضل من هاجر تلك الهجرة ، وهو المراد بقوله : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة » .

فهذا وجه الجمع بين الحديثين ، وإذا أطلق في الحديث ذكر الهجرتين فإنما يراد بهما هجرة الحبشة وهجرة المدينة .

◦ ◦ ◦

ويظهر لنا من السنة كذلك أن التوجيه الإلهي إلى الهجرة كان سابقاً على تنفيذها بمدة ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت في المنام

أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهلك إلى أنها الإمامة أو هجر ، فإذا هي المدينة : « يثرب » . والإمامة ها مدينة من اليمن على مرحلتين من الطائف ، وهجر بلد من البحرين ، كان فيها مساكن عبد القيس . وقال النبي في حديث آخر : « إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين ، وهما الحرتان » فهاجر من هاجر إلى المدينة ، وعاد المهاجرون إلى الحبشة منها إلى المدينة . والحره هي الحجاره ذات اللون الأسود . وإذا كانت الهجرة من مكة إلى المدينة ذات شأن وجلال ، فإن السنة المطهرة تحدثنا بأن هناك هجرة أخرى ذات شأن وجلال ، فقد جاء في الصحيحين عن أبي موسى رضى الله عنه قال :

بلغنا مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه ، أنا وإخوان لي أنا أصغرهما ، أحدهما أبو بردة ، والآخر أبو رهم ، في بضع وخمسين رجلا من قومي ، فركبنا سفينة ، فألقنا إلى النجاشي بالحبشة ، فوجدنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده ، فقال جعفر : إن النبي صلى الله عليه وسلم بعثنا ههنا ، وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا . فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً ، فوافقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح خيبر ، فأقسم لنا ، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً ، إلا لأصحاب سفيتنا مع جعفر وأصحابه ، فقسم لهم معهم ، فقال بعض الناس لنا : نحن سبقناكم بالهجرة .

فدخلت أسماء بنت عميس على حفصة رضى الله عنها تزورها ، فدخل عمر عليهما فقال : من هذه ؟

فقلت : أسماء بنت عميس .

فقال عمر : الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟

فقال أسماء : نعم .

فقال عمر : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه

وسلم منكم .

فقضيت وقالت : كذبت يا عمر ، كلا والله . كنتم مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، بطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم ، وكنا في أرض

البعداء البغضاء في الحبشة ، وذلك في الله وفي رسوله ؛ وإيم الله لا أطعم

طعاماً ، ولا أشرب شرباً ، حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،

ونحن كنا نُؤذَى ونخاف ، وسأذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وأسأله ، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك .

فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم قالت : يا نبي الله ، إن عمر قال

كذا وكذا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس بأحق بي منكم . وله

ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان .

قالت أسماء : فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالا ،

يسألونني عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في

أنفسهم مما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقالت : فكان أبو موسى يستعيد هذا الحديث مني (١) .

□ □ □

وبعد ، فإذا كان هناك خلاف في فرضية الهجرة الحسينية من مكان

إلى مكان على توالى الزمان ، فإنه لا خلاف هناك على الهجرة المعنوية الروحية ،

فإنها واجبة على المؤمن دائماً ، وهجرة الروح هي أن يبذل الإنسان وجهه وقلبه

(١) انظر كتاب « فتاوى » فتاوى و تاريخ الإسلام ، ص ٢٢٤ .

دائماً إلى طاعة ربه واتباع رسوله ، ولذلك يقول الإمام ابن القيم في كتابه « طريق المجرتين » إن المسلم « له في كل وقت هجرتان : هجرة إلى الله بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء ، والإقبال عليه ، وصدق النُّحَا والافتقار في كل نفس إليه .

وهجرة إلى رسوله في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة ، بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفصيل محاب الله ومرضاته ، ولا يقبل الله من أحد ديناً سواه ، وكل عمل سواه فعميش النفس وحظها ، لا ريد معد

وقد قال شيخ الطريقة وإمام الطائفة الجنيد بن محمد قدس الله روحه : الطرق كلها مسدودة ، إلا طريق من اقتنى آثار النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن الله عز وجل يقول : « وعزني وجلالي ، لو أتوني من كل طريق ، واستفتحوا من كل باب ، لما فتحت لهم حتى يدخلوا حلقك » .
صلاة وسلاماً على صاحب الهجرة رحمة الله للعالمين .